**المحاضرة الخامسة: حسن التخلص**

ويقصد به حسن الانتقال من موضوع إلى موضوع آخر.  
فالشاعر المجيد هو الذي يحسن الانتقال، فيغادر موضوعه الأول إلى الذي يليه دون خلل أو انقطاع، ويجعل معانيه تنساب إلى الموضوع الآخر انسياباً بحيث لا يشعر قارئه بالنقلة، بل يجد نفسه في موضوع جديد هو استمرار للأول وامتداد له، وبين الموضوعين تمازج والتئام وانسجام.  
 وقد استخدم الشاعر الجاهلي أساليب كثيرة في التخلّص والانتقال، منها: الاستفهام أو الإشارة أو بعض الحروف كالفاء والواو وربّ وبل.  
 وقد يستخدم الجاهليون الانتقال المفاجىء بالقطع، وذلك بأن يقول: (دع ذا) أو (فدعها) أو (عدّ عن ذا).

# لم يعرف النمط التقليدي للقصيدة العربية وحدة الموضوع أو الأسلوب المباشر في التعبير عن الهدف والغاية من النظم القصائدي، بل كان يتحتم على الشاعر البدء بمقدمة وصفية تستغرق مساحة غير قليلة من مجموع أبيات القصيدة، وربما استوعبت هذه المقدمة مساحة 20% أو أكثر في بعض القصائد الطوال، حتى إذا ما انتهى الشاعر من هذه المقدمة وأراد الولوج إلى هدفه الرئيس فإنه ينسلت إليه بنعومة لا تنبه السامع إلى تنافر في الموضوعات أو خشونة في الانتقال؛ عبر ما يسمى عند البلاغيين ب(حسن التخلص)، والذي يعرف بأنه: انتقال الشاعر مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا قد وقع في الثاني لشدة الالتئام بينهما. حسن التخلص مصطلحاً نقدياً:

ولعل أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت 209 هـ) أول من ذكر مصطلح التخلص في نص نقله عنه الحاتمي قال: "أحسن تخلص للعرب تخلصت به من بكاء طلل، ووصف إبل، وتحمل أظعان، وتصدع جيران بغير (دع ذا)، و (عد عما ترى) و (اذكر كذا) من صدر إلى عجز، لا يتعداه، شاعر سواه ولا يعلقه بما عداه"( فيظهر من كلام أبي عبيده أن صيغ (دع ذا) و (سل) و (عد عما ترى) وسائل انتقال استخدمت للربط بين أجزاء القصيدة ذوات الأغراض المختلفة كالغزل والرثاء والهجاء فكانت جسورا لفظية تربط بين أغراض القصيدة الواحدة ،وأكد في كلامه أن هذه الصيغ ليست الموضع الوحيد للتخلص فالروابط موجودة بين أجزاء القصيدة عند كل جزء، وأن للتخلص روابط ثرية متعددة وليست مقيدة بهذه الصيغ،كما في قول زهير :

**دع ذا وعد القول في هرم خير البداة وسيد الحضر**

**و**قوله:

**إن البخيل ملوم حيث كان ولـ كن الجواد على علاته هرم .**

فإن زهير عند انتقاله بين صفتي الكرم والبخل جعل القاسم المشترك أو العلاقة بينهما هي الإفراط في الصفة، فالكريم مفرط في كرمه والبخيل مفرط في بخله.

وانطلق ابن طباطبا (ت 322 هـ) منطلقا جديدا في رصده لحركة التخلص في الشعر وأغراضه فقال: "إن للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه، على تصرفه، في الفنون، صله لطيفة، فيتخلص من الغزل إلي المديح ومن المديح إلي الشكوى بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله".

لقد أضاف ابن طباطبا أثرا جديدا على صعيد البناء النصي ووحدته الكاملة وأكد على ضرورة التماسك النصي في القصيدة الواحدة.

وفي نص ابن طباطبا نلحظ عناصر أهمها:

1- أن للشعر فصولا كفصول الرسائل.

2- أن يصل الشاعر كلامه، على تصرفه في فنونه، صلة لطيفة.

3- أن يتخلص من معنى إلى آخر بألطف تخلص.

4- أن لا ينفصل المعنى الثاني عما قبله.

ففي العنصر الأول مقارنه سريعة بين الشعر وفصول الرسائل لكنه لم يفصل في كلامه عن فصول الرسائل مما يدل على أن التماثل بين الرسائل والشعر أمر مسلم به، إذن للنثر تراكيب كتراكيب الشعر والتخلص فاصل في هذه التراكيب، وفي العنصر الثاني إشارة إلي ضرورة أن يصل الشاعر كلامه بعضه ببعض، وترى في قوله (في فنونه) إشارة إلى أن الكلام مركب من فنون عدة ، ويبين العنصر الثالث والرابع علاقة تكامل، أي بانتقال من كلام تشترك فيه أطراف متعددة إلى كلام مخصص لغرض معين.

فضلا عن أن إضافة صيغة التفضيل (ألطف) إلى التخلص يوحي للمتلقي ببراعة هذا الانتقال. أما العنصر الرابع ففيه تأكيد صريح على ضرورة الاتصال بين المعنى السابق واللاحق، وهذه الصيغ الأربع على الرغم من تعددها تدور حول موضوع مراعاة الوصل بين الإغراض المتعددة للقصيدة.

وجاء ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) بمفهوم جديد لم يسبقه إليه أحد غاير فيه النقاد الذين سبقوه فعرفه"ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى المعنى الأول وأخذ في غيره،ثم رجع إلى ما كان فيه"( ،وفي هذا التعريف يجعل القيرواني ثلاثة معاني وخمسة انتقالات وإننا قد اعتمدنا هذا المفهوم لان الآخرين جعل التخلص الانتقال من معنى إلى معنى دون ذكر العود إلى المعنى الأول سوى ابن رشيق "فالتخلص بهذا المفهوم هو حركة المعاني داخل أجزاء النص، وتبادل المواقع بينهما ،هذه الحركة تتيح للمبدع شد المتلقي إلى نصه ونقله من معنى إلى آخر" ، وجعل ابن سنان   
(ت 466 هـ) التخلص ضرورة من ضرورات صحة النظم واتساقه بقوله "ومن الصحة النسق والنظم، وهو أن يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه"

في نص ابن سنان أمور لابد من الوقوف عندها:-

1- لم يخصص التخلص في الشعر بل جعله عاما.

2- ادخل ابن سنان التخلص في نظم الكلام عندما قال صحة النظم والنسق .

3- الاستمرارية في المعنى الواحد دون انفصال وعند هذا الانفصال يحصل أحسن تخلص.

ومثال ابن رشيق القيرواني قول النابغة الذبياني(18 ق.هـ)، بدا بشكوى الزمان فقال:

|  |
| --- |
| **وكفكفتُ مني عبرةٌ فرددتــــُها إلى النحر منها مُستهـلٌ ودامـعُ**  **على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت :المَـا اصح والشيب وازعُ** |

**ثم تخلص إلى الاعتذار**:

|  |
| --- |
| **ولكن همَاً دون ذلك شـاغل مكان الشغاف تبتغيه الأصابــع**  **وعيدُ أبى قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكسٌ فالضواجـعُ** |

**ثم عاد إلى الأول يشكو**:

|  |
| --- |
| **فبتَ كأني ساورتني ضئيلـةٌ من الرقش في أنيابها السمَُ ناقـعُ**  **يُسهر في ليل التمام سليمهـا لحلي النساء في يديه قعـاقــعُ** |

ثم اخذ في غيره ووصف الأفعى:

|  |
| --- |
| **تتاذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طورا وطورا تراجــعُ** |

ثم رجع إلى ما كان فيه وهو الاعتذار:

|  |
| --- |
| **أتاني – أبيت اللعن- أنك لمتني وتلك التي تستكُ منها المسـامِعُ** |

على أن حسن التخلص والخروج إلى مقصود الكلام يبقى فنا من الفنون الإبداعية التي تستحق التوقف عندها والإشادة بها؛ ذلك لأنه عندما ما يبتدئ المتكلم بغير الغرض المقصود من كلامه، ثم ينتقل مما ابتدأ به إلى غرضه يُبرِز هذا الانتقال مقدرات الشاعر الأدبية والإبداعية، كما يجدر التنبيه إلى أن حسن التخلص له فنون عدة، منها أن الشاعر أثناء التكلم قد ينتقل من معنًى لآخر ثم يعود للمعنى الذي انتقل منه، ويسمى هذا استطرادًا، وقد يتحدث عن معنى من المعاني ويستتبع ذلك الحديث عن معنًى آخر، أو يدمج معنًى في معنى، أو يُضمن كلامه كلام الغير، أو يقتبس من القرآن والحديث، وعندئذٍ ينبغي للمتكلم أن يتأنق في خروجه، وأن يلائم في استطراده، وأن يراعي المناسبة في استتباعه، أو إدماجه، أو اقتباسه، أو تضمينه.